الأصوات: مخارجها وترتيبها عند الخليل وسيبويه

بقلم: ابراهيم الشمسان / الرياض

تطرقنا في حلقة سابقة إلى كيفية ترتيب معجم العين لدى الخليل والأسلوب الذي استخدمه لإيجاد هذا المعجم . وها نحن نعود في هذه الحلقة لنتناول مخارج الحروف عند الخليل وسيبويه .

مخارج الحروف عند الخليل

ما نجده في العين من وصف للمخارج وترتيب لها ليس واضحا ولا يوافق النظرة العلمية والوصف العلمي الحديث للمخارج ، بل ان هذا الاضطراب قد لاحظه القدماء أنفسهم وحاولوا مناقشته بل ان منهم من أنكر أن يكون العين من وضع الخليل واعتذر له قوم ودافعوا عنه ، كل هذا ليس مجاله هنا ، وحسبنا أن نشير إلى هذه المشكلة التي جعلت بعض الدارسين المحدثين مثل ابراهيم انيس يعرض عما جاء في العين ويدرس ما جاء عند سيبويه على افتراض أنه مأخوذ عن الخليل . يقول أنيس : « وقد لخص سيبويه في آخر كتابه المشهور آراء الخليل في أصوات اللغة في دقة وأمانة » ، وهذا الصنيع أمر سهل ولكن اغفال ما ورد في العين لا مسوغ له ، ونحاول الآن التعرف على المخارج وترتيب الحروف عند الخليل . يقول الخليل : « في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومخارج وأربعة هوائية وهي : الواو والياء والألف اللينة والهمزة » .

يقسم الحروف على قسمين ، فخمسة وعشرون حرفا صحاحاً أي غير معتلة لها مخارج ، أما الأربعة الباقية فهي المعتلة أو هي الحركات الطويلة في مفهوم علم اللغة الحديث باستثناء الهمزة ، وهي هوائية أي لا مخرج لها وما ورد عن هذه الأحرف يظهر اصرار الخليل على تسميتها هوائية ويستدل كمال بشر بذلك على احساس الخليل بأن هذه الحروف حركات .

وهذه الحروف غير الصحيحة – كما يرى الخليل – لا مخارج لها لذلك عزلت عن غيرها والحقت بالصحاح تبعا لها . أما الهمزة فهي متميزة عنده عن أحرف المد بل لعله يحس بعدم استقرار موقفه نحوها ، إذ نجده مرة يقول عنها : « وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة » ، وجدير بــه أن يصنفهــا أول الحروف ولكن فكرة الجوفية والهوائية تلح عليه مضافا إلى ذلك حالها الصرفية ، كل ذلك جعله ينحيها عن الحروف ذوات المخارج ويلح على أنها هوائية أو خارجة من الجوف ليس لها حيز تنسب إليه غيره . ولقد أفاض كمال بشر في دراسته للهمزة فقرر أن الخليل وتلامذته الذين جمعوا آراءه في العين يخلطون في مخرج الهمزة وذلك في نقطتين احداهما عدم نسبتهما إلى مخرج واصرارهم على أنها في الهواء وهذا غير صحيح إذ أنها حنجرية ، والنقطة الثانية ضمهم الهمزة إلى الألف والواو ونسبتها إلى الهواء ، فهواء الهمزة ليس منطلقا من الجوف إلى الخارج بدون عائق كما يحدث للألف والواو والياء وانما يقف وقوفا تاما في الحنجـــرة . ويعلل ذلك بمعاملتهم الهمزة معاملة حروف العلة ، وعدم قدرتهم على تحديد مخرجها تحديدا دقيقا . ولعل هذا الخلط هو الذي جعل الخليل لا يبدأ بالهمزة .

أما بقية الحروف فيمكن تلخيص ما ورد بشأنها من اشارات متفرقة مع موازنة مخارجها وترتيبها بالمخارج والترتيب الذي يراه علم اللغة الحديث معتمدا في ذلك على ما ورد في كتاب « علم اللغة العام للأصوات » لكمال محمد بشر على أن نبدأ من الحلق مخالفين بذلك المحدثين .

• حروف حلقية .. مخرجها من الحلق وهي على حيزين :

الأول : العين والحاء والهاء .

الثاني : الخاء والغين .

وليست هذه الحروف كلها حلقية عند المحدثين فالهاء حنجرية كالهمزة وعلى هذا تسبق العين في الترتيب ولا تكون معها في مخرج واحد ، أما العين والحاء فهما حلقيان وبهذا الترتيب أيضا . الخاء والغين فليسا حلقيين وانما هما من أصوات أقصى الحنك مع الكاف والواو ويأتيان بعد القاف ، أمــا ترتيبهما فصحيح فالغين بعد الخاء .

• حروف لهوية .. مخرجها من اللهاة وهي : القاف والكاف وذكر لهما مخرجا مع الجيم وهو : من بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم . والقاف لهوية عند المحدثين

ولكنها تسبق الخاء والغين . أما الكاف فليس لهويا بل هو مع الخاء ، والغين ، والواو وهي من أصوات أقصى الحنك وتأتي بعد الغين في الترتيب .

• حروف شجرية .. مخرجها من شجر الفم أي منفرجة ، وهي : الجيم والشين والضاد وعند المحدثين الجيم والشين أصوات لثوية حنكية أما الضاد فهي من الأصوات الاسنانية اللثوية مع التاء والدال والطاء واللام والنون . وهذا ترتيبها : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف أسلية .. مخرجها من أسلة اللسان أي مستدق طرفه ، وهي : الصاد والسين والزاي ، عند المحدثين هي أصوات لثوية مع الراء وترتيبها : (ر ، ز ، س ، ص) .

• حروف نطعية .. مخرجها من نطع الغار الأعلى وهي : الطاء والتاء والدال . وهذه عند المحدثين تؤلف مع غيرها الأصوات الأسنانية اللثوية ، وهي : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف لثوية .. مخرجها من اللثة وهي الظاء والذال والثاء ، وعند المحدثين هي أصوات اسنانية وترتيبها (ث ، ذ ، ظ) .

• حروف ذلقية .. مخرجها من طرف ذلق اللسان ، من طرف غار الفم وهي الراء واللام والنون . ولطرف اللسان دخل في تشكيل مخرج هذه الحروف لكنه لا يشترك مع عضو واحد فقط حتى تكون هذه الحروف من مخرج واحد ، والراء عند المحدثين صوت لثوي مع الزاي والسين والصاد وترتيبها : (ر ، ز ، س ، ص) . أما اللام والنون بهذا الترتيب فقريبان من الراء ولكنهما صوتان أسنانيان لثويان مع التاء والدال والضاد والطاء وترتيبها : (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• حروف شفوية .. مخرجها من بين الشفتين وهي : الفاء والباء والميم والفاء عند المحدثين صوت اسناني شفوي ، والباء والميم صوتان شفويان .

• حروف هوائية .. في حيز واحد لا يتعلق بها شيء وهي : الياء والواو والألف والهمزة ، وفي موضع آخر « أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق » .

ومجال الخلاف بين الخليل والمحدثين هنا كبير ، فهو في الياء والواو لا يفرق بين حالين لهما يذكرهما المحدثون ، فالحال الأولى في مثل : ولد يعلم فهما هنا صوتان صامتان ، والحال الثانية في مثل : يدعو وترمي فهما هنا حركتان طويلتان . فالخليل نظر اليهما نظرة واحدة واعتبرها حرفي علة وغض عليه مخرجهما فصنفهما في الهواء ، أما المحدثون فيصنفون الواو والياء مرتين مرة مع الأصوات الصامتة ومرة مع الحركات ، فالواو في الصوامت من أصوات أقصى الحنك وهي (خ ، غ ، ك ، و) ، والياء في الصوامت هي أصوات وسط الحنك .

أما الألف فقد ضمها إلى هذين الحرفين لأنها معتلة مثلهما ، أما الهمزة فهي عنده كما مر سابقا تختلف عن الياء والواو والألف وإن كان نصيبها تغيرات حرفية لذا فهي تخرج من أقصى الحلق مرة وفي الهواء مرة أخرى ، أما قوله بخروجها من أقصى الحلق فهو أقرب إلى نظرة المحدثين فهي عندهم حنجرية فلعله لم يعرف الحنجرة وانما عبر عنها بأقصى الحلق ، ولكنه رغم هذا لم يصنفها مع الحروف الصحاح ربما لأنه وجدها تعتل ، ولكنه يؤكد على أن أقصى الحروف — وقد يقصد الصحاح فقط — هو العين . ومهما يكن من أمر فهو لم يوفق في تصنيف الهمزة كما يقول كمال بشر .

مخارج الحروف عند سيبويه

المادة الصوتية في الكتاب أغزر وأدق من المادة الصوتية في العين ، والغريب أن سيبويه لم يصرح بمصدر هذه المادة ، أمن استاذه الخليل أم من عمله هو ؟ ولم يشر إلى العين وطريقته في ترتيب الحروف والذي نستبعده هو عدم تأثره بالخليل ولكنه قد يكون أضاف بعض التعديلات حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وفي الحديث عن المخارج في الكتاب وضوح وترتيب لا نجدهما في العين . وعدد المخارج ستة عشر مخرجا في الكتاب ، أما عند كمال بشر فهي أحد عشر مخرجا فقط .

وسنحاول الآن أن نلخص المخارج كما وردت في الكتاب . ونوازنها بالنظرة الحديثة على أننا سنبدأ من الحلق كما يفعل علماء العربية القدماء .

• من أقصى الحلق : مخرج الهمزة والهاء والألف . والهمزة والهاء عند المحدثين من الأصوات الحنجرية أما الألف فهو حركة طويلة وباستثناء الألف يكون ما ذهب إليه سيبويه صحيحا على افتراض أن أقصى الحلق يقصد به الحنجرة .

• من أوسط الحلق : مخرج العين والحاء ، وهي عند المحدثين أصوات حلقية فسيبويه موفق في تحديده هذا .

• من أدنى الحلق : مخرج الغين والخاء ، وعند المحدثين يجيء هذان الصوتان بعد القاف وهما من أصوات أقصى الحنك مع الكاف والواو ، أما الخاء فهي بعد الغين كما ذكر سيبويه وترتيب أصوات أقصى الحنك هو (غ ، خ ، ك ، و) .

• من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى : مخرج القاف أي أن مخرجها أقصى الحنك ، ولكن المحدثين يعتبرونها لهوية تسبق الغين والخاء .

• من مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى : مخرج الكاف وهي عند المحدثين من أصوات أقصى الحنك وهي (خ ، غ ، ك ، و) ويظهر أن الكاف عند سيبويه لا تختلف عنها عند المحدثين .

• من وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى : مخرج الجيم والشين والياء ، وهذا موافق لما عليه المحدثون ، ويسمونها أصوات وسط الحنك (١) ، أما كمال بشر فيقصر أصوات وسط الحنك على الياء ويسمى الجيم والشين أصوات لثوية حنكية .

• من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس : مخرج الضاد ، أما الضاد عند المحدثين فهي اسنانية لثوية مع التاء والدال والطاء واللام والنون وترتيبها (ت ، د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• من أدنى حافة اللسان إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فوق الثنايا والناب والرباعية والتنبه : مخرج اللام ، أما اللام عند المحدثين فهي اسنانية لثوية ، أو لثوية حنكية ولا فرق كبير بين نظرة سيبويه والمحدثين إلى هذه المخرج غير أنهم يصنفون اللام مع حروف أخرى هي (ت . د ، ض ، ط ، ل ، ن) .

• من طرف اللسان ومن بين ما فوق الثنايا : مخرج النون ، فهو صوت أسناني لثوي وهذا ما عليه المحدثون .

• من طرف اللسان وفوق الثنايا ، ادخل في ظهر اللسان : مخرج الراء وهو يوافق ما يسميه المحدثون صوتا لثويا ويصنفونه مع أخرى هي (ر . ز ، س ، ص) .

• من بين طرف اللسان وأصول الثنايا : مخرج الطاء والدال والتاء ومعنى هذا انها أصوات اسنانية – لثوية بالتعبير الحديث وهو وصف دقيق كما يقول كمال بشر .

• بين طرف اللسان وفوق الثنايا : مخرج الزاي والسين والصاد وهي أصوات لثوية كما هي عند المحدثين غير أنهم يزيدون الراء وهذا ترتيبها (ر ، ز ، س ، ص) .

• بين أطراف اللسان وأطراف الثنايا : مخرج الظاء والذال والثاء وهذا موافق لما عليه المحدثون فهي أصوات اسنانية وترتب هكذا (ث ، ذ ، ظ) .

• من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا : مخرج الفاء ، وهذا موافق لما عليه المحدثون والفاء عندهم صوت أسناني شفوي .

• من بين الشفتين : مخرج الباء والميم والواو ، وهذا موافق أيضاً لما عليه المحدثون غير أنهم يصنفون الواو مع أصوات أقصى الحنك ولا يرون بأسا في تسميتها بالشفوية لاستدارة الشفتين عند النطق بها .

• من الخياشيم : مخرج النون الخفيفة ، ولا يرى المحدثون حاجة إليه لأنه فرعي على المخرج رقم (٩) .

وأذكر هنا بعض التحفظات والملاحظات حول دراسة سيبوية للمخارج ، وهذه الملاحظات مأخوذة من كتاب « علم اللغة العام للأصوات » لكمال محمد بشر نوجزها في النقاط الآتية :

• عد الواو شفوية يحتاج إلى تكملة ذلك لأنها تخرج في نحو (ولد) من أقصى الحنك مع اتخاذ الشفتين وضعا معينا . فيمكن وصفها بأنها : حنكية شفوية .

• وضع القاف بعد صوتي الغين والخاء مخالف للمحدثين فهي قبلهما عندهم ، ويرجع ذلك إما لخطأ في تقدير الموضع الدقيق لها ، أو أن العرب كانت تتكلم عن قاف غير القاف الحاضرة ، ولعلها ما يسمى بالجاف أو ما يشبه الكاف الفارسية ، وهو الصوت الذي نسمعه في بعض جهات الصعيد .

• الضاد عنده بعد الياء ومثل اللام وهي من مخرجها ، أما الضاد عند المحدثين وكما تنطق اليوم فهي في الترتيب مع التاء والدال والطاء . وهناك احتمالان لهذا الاختلاف الأول هو احتمال اخفاق سيبويه في معرفة مخرجها ، والثاني هو احتمال أنه يتحدث عن ضاد غير الضاد الحديثة ، ويؤيد هذا الاحتمال أنه نسبها إلى مخرج لا يشاركها فيه حرف آخر ، وجعله الطاء النظير المفخم للدال وليس الضاد فهي عند المحدثين نظير الدال ، ووصفها عند ابن جني بأنها تتكلف من جانب الفم الأيمن أو الأيسر ، وهي عندهم ليست انفجارية بل رخوة فهي احتكاكية جانبية ، ويرى يوهان فك أن هناك ضادا أصلية نظيرا مفخما للدال تشبه الضاد الحالية تغيرت مع الفتوح الإسلامية ، فإذا صح رأي يوهان فك فان هناك احتمالين على الأصح هما :

• خطأ تحديد مخرجها عند سيبويه .

• انه يعني الضاد المولدة وليس الضاد الأصلية .

والذي أراه شخصيا أن احتمال وجود ضاد أصلية لم يعن بها سيبويه هو احتمال ضعيف ذلك أن قراءة القرآن لم تتأثر بالفتوح والدراسات الصوتية مبنية على قراءة القرآن ورواية الأشعار ، فلو كان هناك ضاد أصلية لاثبتها سيبويه في الحروف لأنها ستكون في القرآن ولأشار إلى المولدة في الحروف الفروع التي ذكر ، وهذه الضاد الأصلية كما يسميها يوهان فك ليست مطردة في اللهجات العربية ذلك أنك لا تجدها في العراق ولا في نجد فالضاد عندهم كثيرا ما تلتبس بالظاء وهذا الخلط قديم حتى اضطر العلماء إلى وضع كتب خاصة للضاد والظاء ورسم الكلمات الواردة بهما .

• الصاد والزاي والسين بعد الطاء والدال والتاء ، وهذا عكس ما عليه المحدثون وفي النطق الحالي للزاي والسين والصاد يوضع طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدم اللسان باللثة التقاء خفيفا يحدث الاحتكاك المسموع ، وهذا يعني أنها سنية بالنسبة للوضع الأول ولثوية للوضع الثاني .

• وقد انتبه سيبويه وابن جني إلى التقاء طرف اللسان بالأسنان وأهمل التقاءه باللثة .

• ذكر الألف في الأبجدية لا يوافق عليه المحدثون لأن الأبجدية للأصوات الصامتة ، ثم لا يوافقون على وضعها مع الهمزة لأن الهمزة حنجرية والألف يتحدد مخرجها بوضع اللسان وضعا معينا تجاه الحنك الأعلى .

ولا أجد تفسيرا مقنعا يمكن أن يوضح هذا الاختلاف ، فلعل سيبويه عند تعداده للحروف لم يقصد ترتيبها ، ولكن هذا غير مقنع أيضاً وربما وقع خطأ من النساخ لهذه النسخة من الكتاب .

ومهما يكن فاننا نجد عند ابن جني ترتيبا ينسبه إلى سيبويه وهو لا يتفق مع الترتيبين المذكورين كل الاتفاق .· أما الترتيب فهو :

أ ا هـ – ع ح – غ خ – ق – ك – ج
ش ي – ض – ل – ر – ن – ط د ت – ص
ز س – ظ ذ ث – ف – ب م و .

يختلف هذا الترتيب عن ترتيب سيبويه المخرجي في الآتي :

- الألف تسبق الهاء في ترتيب ابن جني وفي ترتيب سيبويه للحروف أيضاً أما الترتيب المخرجي فهي بعد الهاء .
- القاف قبل الكاف في رواية ابن جني وترتيب سيبويه للمخارج أما ترتيبه للحروف فالقاف بعد الكاف .
- الحروف (ج ، ش ، ي) تسبق الضاد في ترتيب ابن جني والترتيب المخرجي عند سيبويه ، وتكون بعد الضاد في ترتيبه للحروف .
- الراء تسبق النون في ترتيب ابن جني وترتيب سيبويه للحروف ، أما ترتيبه المخرجي فتكون الراء بعد النون .
- الزاي والسين بعد الصاد في ترتيب ابن جني وترتيب سيبويه للحروف ، أما في الترتيب المخرجي فهما قبلها .

ونجد ابن جني نفسه أيضاً عند بيان المخارج يجعل الراء بعد النون وليس قبلها كما ذكر في تعداده للحروف ، وقد لاحظ هذه الملاحظة كمال بشر أيضاً □